أثر التيارات المادية

فى التصورات الدينية اليهودية ، والمسيحية

الأستاذ / الدكتور عبد المعطي محمد بيومي

أستاذ العقيدة والفلسفة

- من المعروف أن العقائد التي تقوم عليها الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية ، والاسلام ، في أساسها تنبع من جوهر التوحيد الخالص ، الذي لاتشوبه شائبة مادية .
- فالله في هذه الأديان غير العالم ، لايشبه شيئا ، ولايشبهه شيء ، لأنه غير مادي .
- ولكن التفكير المادي تسلل إلى هذه الأديان ، وحاول أن يلبس عقائدها بعقائد مادية ، فظهرت نزعات التشبيه والتجسيم فى صفات الله ، كما ظهرت وحدة الوجود .
- وهكذا جعلت المادية الإله ماديا ، كما حدث في اليونان لدى أصحاب المذاهب الرواقية خاصة .
- وفي الصفحات القادمة سنعرض - إن شاء الله - للتيارات المادية وتأثيرها على المعتقدات الدينية اليهودية والنصرانية ، وتصورات المعتنقين لهذين الدينين .

١ ـ أثر التيارات المادية على اليهودية

يهمنا في هذا البحث أن نستعرض التيار المادي في عقيدة الألـوهية خاصـة، عنـد اليهود.

ـ لأن هذه العقيدة وحدها دون عقائدهم، هي التي يظهر فيها التأثير المادي أكثر من غيرها من العقائد.

ـ ولأن عقيدة الألوهية بالذات، هي التـي يؤسس عليهـا ما عداهـا من العقائـد والأخلاق.

ومنهجنا أن نعرض هذه العقيدة:ـ

أولا: من المصادر اليهودية المعتمدة، خاصة الأسفار الخمسة، والتلمود.

ثانيا: نعقب عليها من القرآن الكريم الذي يعد ـ في نظرنا ونظر الباحثين المنصفين ـ أوثق المصادر في تاريخ الأديان.

في الأسفار :-

والذي يتضح من هذه الأسفار أن عقيدة اليهود لم تستقر على التوحيد إلا فترات قصيرة جدا، ولم تطق عقولهم التجريد إلا في هذه الفترات التي لا تكاد تذكر.

ونستطيع أن نحدد فترتين قصيرتين لعقيدة التوحيد في بني اسرائيل :-
١ - الفترة الأولى : في الأيام الأولى لمبعث موسى عليه السلام، وأثناء خروجه بهم من مصر.

وقد كان ذلك حوالى سنة ١٢١٣ ق. م عندما اضطهدهم فرعون مصر الشهير «رمسيس الثاني»، وأخرجهم ابنه «منفتاح» الذي كان فرعون مصر بعد أبيه.
وقد كانت العقيدة التي دعا إليها موسى هي عقيدة التوحيد التي تدعو إلى عبادة إله واحد مجرد عن المادة ومنزه عن الشركاء.

جاء في الوصية الأولى :

«أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (١).

وإذا كانت هذه الوصية تنهي عن أن يكون هناك آلهة أخرى لبني إسرائيل غير الله، أو «يهوه» كما سماه موسى، فإن الوصية الثانية التي تتلوها مباشرة، تقرر أن الله أو «يهوه» يجل عن الحصر والإحاطة أو التجسيد.

تقول الوصية :-

«لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما، مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض» (٢).
ورغم ذلك، فإن الدراسات في هذا الصدد تشير إلى أن بني إسرائيل التفوا حول موسى وأخيه هرون، لا كنبيين بل كبطلين قوميين، رأوا فيهما رمزا لا للعقيدة الصحيحة بل للخلاص القومي من نير الاستعباد الفرعوني.

وسواء آمنوا في داخلهم بعقيدة الإله الواحد المجرد عن المادة أو لم يؤمنوا، فإن بني إسرائيل لم يلبثوا بعد أن نجوا من البحر ومطاردة فرعون، ولما يزالوا في الطريق إلى الأرض المقدسة تركهم موسى أربعين ليلة فقط، وصعد على جبل الطور ليتلقى التعاليم، إذا بهم يستبطئونه، ويطالبون أخاه هرون بأن يصنع لهم إلها ماديا.

---

(١) سفر الخروج ٢٠ : ١ - ٣.
(٢) سفر الخروج ٢٠ : ٤.

وتجلت في أذهانهم حينذاك صورة العجل الذي كان يعبده المصريون الذين فارقوهم عن قرب.

تقول التوراة :-

«ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه.

فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم، وأتوني.

فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها إلى هرون، فأخذ ذلك من أيديهم، وصوره بالإزميل، وصنعه عجلا مسبوكا.

فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هرون بني مذبحا أمامه ونادى هرون وقال:

غدا عيد للرب، فبكروا في الغد، وأصعدوا محرقات، وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا للعب.

فقال الرب لموسى: اذهب، انزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلا مسبوكا، وسجدوا له وذبحوا» (٣).

وهكذا ارتد بنو إسرائيل عن التوحيد بسرعة لم تدرك المراجع التاريخية حسابها الزمني، ولم تستطع تقديرها بالسنين والأيام، إذ ما لبثوا أن خرجوا حتى ارتدوا.

٢ - الفترة الثانية: وكانت بعد الأسر البابلي، ذلك أن ملك بابل الشهير نبوخذ نصر (بختنصر) الذي احتل بلاد آشور وزحف على فلسطين . وأخذ مملكتى يهوذا واسرائيل من فرعون مصر ونهب اورشليم ودمرها ودمر معبد سليمان (٤) سبي أكثر السكان الإسرائيليين إلى نابل ، بذلك ملك اليهود في فلسطين ، ويعرف هذا بالأسر البابلي .

---

(٣) سفر الخروج ٣٢: ١ - ٨.

(٤) بعد خروج اليهود من مصر جبنوا عن دخول فلسطين خوفا من الكنعانيين أهل البلاد وتاهوا في سيناء أربعين عاما، حتى قادهم «يوشع ابن نون» إلى فلسطين فاحتل مناطق التلال الداخلية من جهة الشاطىء الغربي لنهر الأردن وأقام بها مملكة ظلت على خلاف مستمر مع الفلسطينيين والقبائل المجاورة خاصة أهل مؤاب وأهل مدين ثم انقسمت هذه المملكة بعد عهد القضاة الكهان الذين حكموها، وبعد عهد الملوك الذين جاؤ وا بعدهم، الى مملكتين: احداهما جنوبية اسمها مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم، والثانية اسمها مملكة اسرائيل وعاصمتها نابلس، وفي سنة ٧٢١ ق. م سقطت مملكة اسرائيل على يد سرجون الثاني ملك آشور، وفي سنة ٦٠٨ ق. م سقطت مملكة يهوذا على يد فرعون مصر الذي واصل زحفه حتى احتل مملكة اسرائيل أيضا وأخذها من الأشوريين (انظر: د. أحمد شلبي. اليهودية ص: ٧١ ط ٤).

وقد هز هذا الأسر عقول بني اسرائيل هزة عنيفة.

- من ناحية: أثار لديهم سؤالا مهما هو: كيف يرعى «يهوه» شعبه الذي تفرق في الأرض، فذهب بعضه إلى الأسر في بابل، وبقي بعضه من الفلاحين والأميين في فلسطين، وهرب بعضه إلى مصر، عائدا مرة أخرى إلى مهجر أجداده.

- ومن ناحية أخرى: كان اليهود يعتقدون أن «يهوه» كان يحل في الهيكل، فأين يهوه الآن بعد أن تحطم الهيكل؟

* كل ذلك ولد عند بني إسرائيل شعورا بأن يهوه الذي كان محدودا بالهيكل لا يتعداه، ليس هو «يهوه» الذي يجب أن يعبد بل هو «يهوه» الذي لا يحده مكان ولا يحيط به.

ومن ثم أخذوا يعتقدون لأول مرة بعد أن دهمتهم الحوادث، بأن الاله أسمى من أن يحل في مكان.

كذلك ولد الأسر فيهم شعورا عميقا بأنهم ما كانوا ليقعوا فيما وقعوا فيه من الذل والهوان إلا لأنهم أخطأوا، فبسبب خطاياهم الكثيرة أنزل يهوه بهم ما أنزل من العذاب. وقد مهد لذلك الشعور نبوءات النبي «أشعيا» (٧٢٩ - ٦٨٨ ق. م) الذي كان كثيرا ما يحدثهم عن إله واحد عالمي للناس جميعا، وفي كل مكان.

جاء في سفر «اشعيا» ٣٧ : ١٦ - ٢٠.

«أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض، صنعت السموات والأرض، إن ملوك أشور قد خربوا كل الأمم وأرضهم ورفعوا آلهتهم إلى النار لأنهم ليسوا آلهة، بل صنعت أيدي الناس خشب وحجر، والآن خلصنا يا رب لنعلم ممالك الأرض أنك أنت الرب وحدك»

كم جاء فيه (الإصحاح ٤٤) :-

«أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيري، كل شيء أنا أعلم به. أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدي، باسط الأرض، من معي؟ مبطل آيات المخادعين، وممحق العرافين، مرجع الحكماء إلى الوراء، ومجهل معرفتهم. مقيم كلمة عبده، ومتمم رأي رسله».

كما جاء في الإصحاح الخامس والأربعين من نفس السفر:-

«أنا الرب وليس اخر، لا إله سواي، أنا الرب وليس آخر مصدر النور، وخالق الظلمة، صانع السلام.

. . . أنا صنعت الأرض، وخلقت الإنسان عليها».

ولم يكن «أشعيا» وحده هو الذي دعا إلى التوحيد، بل كان كل أنبياء إسرائيل يدعون دعوته.

ومن أشهر هؤلاء الأنبياء في التاريخ اليهودي بعد «أشعيا» النبيان «أرميا» (٦٥٠ - ٥٨٠ ق. م) «وحزقيال» (القرن السادس ق. م).

فقد جاء في سفر أرميا (الإصحاح السابع) :-

«وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلوات ولا تلح علي لأني لا أسمعك».

«ما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم؟ الأبناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون النار، والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات ولسكب سكائب لآلهة أخرى، لكي يغيظوني. . . أفإياي يغيظون؟ يقول الرب أليس أنفسهم لأجل خزي وجوههم، لذلك هكذا قال السيد الرب: ها غضبى وغيظي ينسكبان على هذا الموضع، على الناس، وعلى البهائم، وعلى الشجر، وعلى الحقل، وعلى سائر الأرض، فيتقدان ولا ينطفئان».

وكذلك جاء فيه: «لأن بني يهوذا قد عملوا الشر في عيني. يقول الرب. . . لذلك ها هي أيام تأتي. . . وتصير جثث هذا الشعب أكلا لطيور السماء ولوحوش الأرض».

كذلك جاء في سفر «حزقيال»: أن الله سيقضي على بني إسرائيل في تخوم إسرائيل، لأنهم لم يعبدوه وقلدوا الأمم المجاورة في عبادتها.

يقول: «في تخم إسرائيل أقضي عليكم، فتعلمون أني أنا الرب الذي لم تسلكوا في فرائضه ولم تعملوا بأحكامه، بل عملتم حسب أحكام الأمم الذين حولكم» (٥).

هكذا استطاعت تحذيرات الأنبياء قبل الأسر وخلالها أن تنبه بني إسرائيل إلى عبادة الله الواحد المنزه عن المادة، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى طبيعتهم المادية، يجسدون الإله ويشبهونه، بحيث يمكن أن يقال إنهم ماديون باستثناء :-

- الفترة القصيرة التي أعقبت خروجهم مع موسى.
- والفترة القصيرة التي أعقبت الأسر البابلي.

على أن المؤرخ «ول ديورانت» يقرر أن بني إسرائيل لم يتخلوا قط في أي فترة من تاريخهم عن عبادة العجل، والكبش، والحمل، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من

---

(٥) سفر حزقيال: الاصحاح الحادي عشر.

عبادة العجل الذهبي، لأن عبادة العجل كانت ولا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر وظلوا زمنا طويلا يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزا لإلههم» (٦) .

ولم يكن العجل وحده هو الذي استحوذ على تصور بني إسرائيل، بل إنهم عبدوا الحية وآلهة أخرى أيضا.

وبعد موسى، وفي كل العهود كان لبني إسرائيل معبودات مادية، ففي عهد القضاة عبدوا إله جيرانهم الكنعانيين «بعل»، ففي سفر القضاة (١٠ - ٦) :-

«وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدو البعليم والعشتروت، وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موءاب، وآلهة بني عمون، وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه».

وفي سفر الملوك الأول (٢ : ٢٨) أنه لما جاء سليمان وبنى الهيكل نظر اليهود إلى «يهوه» على أنه حال في الهيكل، فهو رمز له ومسكن، وبه المذبح الذي يحتوي على رأس العجل الذي قتل قائد سليمان وهو ممسك بقرونه مستجيرا به».

وفي تصور بني إسرائيل أن «يهوه» كما كان يحل في الهيكل، فقد كان يحل في أشياء أخرى، فقد جاء في سفر الخروج :-

«وارتحلوا من سكوت، ونزلوا في إيثام طرف البرية، وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود سحاب، ليهديهم في الطريق، وليلا في عمود نار ليضيء لهم» (٧) .

بل يذهب سفر الخروج في تصويره ليهوه إلى أنه يمكن أن يرى ويحد، وقد رآه جماعة من بني إسرائيل فعلا.

فقد جاء في هذا السفر (١٥ : ١٧) :-

«المكان الذي صنعته يا رب لسكنك المقدس الذي هيأته يدرك يا رب». وجاء فيه (٢٤ : ٩ - ١١) .

«ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا».

كما جاء فيه أيضا (١٩ : ٩ - ١١) :-

«فقال الرب لموسى: هأنا آت اليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حين

---

(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة جـ ٢ ص ٢٢٨ ترجمة محمد بدران. نشر جامعة الدول العربية وأنظر د/ أحمد شلبي اليهودية ص: ١٧٨ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

(٧) سفر الخروج - الاصحاح ١٣ : ٢٠.

اتكلم معك. . . لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبـل سيناء».

وفيه أيضا: (١٩ : ٢٠).
«وينزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل».
وفي سفر (صموئيل الثاني (٧: ٤ ـ ٧): .

« وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلا: اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب. أأنت تبني لي بيتا لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن».

والذي يستمر في مطالعة الأسفار يرى أنها تجاوز مجرد تصوير يهوه بصورة بشرية، إلى تقرير أنه تعتريه الطباع البشرية من الفرح والحزن والصحـة وأعـراض المرض، والضحك والبكاء، ويعتريه الندم.

ففي سفر الخروج (٣٢: ١٤):ـ
«فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» .
وفي سفر (صموئيل الأول) (١٥ ـ ١٠، ١١).

«وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكا، لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي».

وفي سفر التكوين (٢ : ١): أن الله بعـد أن فرغ من خلـق السمـوات والأرض استراح في اليوم السابع.

في التــلمود:

ولا تختلف صورة الله في التلمود عن الصورة التي صورتها الأسفار الأخرى، يقول «ول ديورانت» :ـ

«والله كما يصفـه التلمـود متصف صراحـة بصفـات البشر فهـو يحــب ويبغض ويغضب، ويضحك ويبكي، ويحس بوخز الضمير، ويلبس التمائم ويجلس على عرشه يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته، ويدرس التـوراة ثلاث مرات في كل يوم» (٨).

---

(٨) ول ديورانت: قصة الحضارة. الجزء الثالث من المجلد الرابع ص: ٤٢.

وإذا كان هناك من تطور جوهري في هذه العقيدة فإن التعديل الذي أدخله القراءون في القرن التاسع (الميلادي) أنهم رفضوا التفسير الحرفي للنصوص الواردة وقالوا: «إن بعث الأجسام وما جاء في الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله، يجب أن تؤخذ على سبيل المجاز» (٩).

ولعلهم - كما يقول «ول ديورانت» - كانوا متأثرين في قولهم هذا بآراء المعتزلة المسلمين.

ولكن هذا الرأي لم يقبله جمهور اليهود، خاصة الربانيين الذين ذهبوا إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها وقالوا إن ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات أمثال يد الله وجلوس الله يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقي، بل إن بعضهم قد تغالى في هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله وطول اطرافه ولحيته» (١٠).

وقد حاول «سعديا بن يوسف» - أول فيلسوف يهودي ذائع الصيت في العصور الوسطى - أن ينقذ اليهود من المفاهيم المادية التي أبرزت صورة الله في شكل بشري ضعيف، وكان يؤمن بسيادة العقل وضرورة الإيمان به بجانب الإيمان بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة، ومن ثم ذهب إلى أن النص الذي يتعارض مع حكم العقل لا يجب أن تأخذه العقول الناضجة بحرفيته، بل لا بد أن تؤخذ أوصاف الله الجسمية على أنها مجاز لا حقيقة» (١١).

وبالرغم من الانتشار الواسع لآراء «سعديا بن يوسف»، فإنها لم تجد من يؤمن بها حقيقة، إلا قلة قليلة من اليهود ذوي التفكير الحر.

ويذكر «ول ديوارنت» كذلك أن اليهود يصورون الله أيضا بأنه روح الكون غير المنظورة السارية فيه كله تمده بالحياة، وتسمو عليه وتلازمه في وقت واحد، تعلو على العالم ولكنها مع ذلك حالة في كل ركن من أركانه وكل جزء من اجزائه. والحضرة الإلهية الكونية المسماة «السكينا» (السكن) تكون حقيقة بنوع خاص في الأشخاص المقدسين، وفي الأماكن والأشياء المقدسة وفي ساعات الدرس والصلاة.

ومع كل ذلك يرى اليهود أن الإله واحد، وليس شيء أبغض إلى اليهودية من تعدد الآلهة.

وفي سفر يشوع :-

«وإذا تركتم الرب وعبدتهم آلهة غريبة يرجع فيسيء إليكم ويفنيكم بعد أن أحسن إليكم فقال الشعب ليشوع: لا، بل الرب نعبد» (١٢).

---

(٩) المصدر السابق. نفس الصفحة.

(١٠) المصدر السابق. ص ٤٣.

(١١) المصدر نفسه. ص ٤٤.

(١٢) سفر يشوع (٢٤: ٢٠، ٢١).

ولكن الواضح أن وحدة الله في هذا التصور لا تخرج عن:-
- الوحدة الرواقية التي تصور الله روحا سارية في الكون.
- أو وحدة الذات التي تخلع عليها اليهودية الصفات المادية.

في القرآن الكريم:

وفي القرآن الكريم لا يبعد تصوير اعتقادات اليهود فيه عن ماجاء في الأسفار والتلمود. فالقرآن الكريم يبين أن اليهود لم يطيقوا فكرة التجريد، وعبادة إله لا مادي منذ عبروا البحر.

يقول تعالى: **«وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون»** (١٣).

وهذه الآية تتفق مع ما قاله المؤرخون من أنهم كانوا حتى قبل اتخاذهم العجل قلقين في عبادة التوحيد، فبمجرد أن رأوا غيرهم يعبدون الأصنام حتى تطلعت أنفسهم إلى اتخاذ أصنام مماثلة.

وتعبر آية أخرى، عن عدم استقرار التنزيه والتوحيد في نفوسهم، إذ يقول الله سبحانه **«يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك. فقالوا أرنا الله جهرة»** (١٤).

ولو أنهم عقلوا معنى الألوهية لما كان هناك محل لهذا السؤال؛ لأن الذي يرى هو المادي فقط.

وما لبث هذا القلق أن تحول إلى ردة صريحة، بعد أن غاب عنهم موسى أربعين ليلة فقط حتى اتخذوا العجل **«واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار. ألم روا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا. اتخذوه وكانوا ظالمين»** (١٥).

وهنا تختلف حكاية القرآن عن الأسفار اليهودية في واقعة العجل وتحديد مسئولية هرون.

فهذه الأسفار تلقي التهمة عليه، وتصفه بأنه هو الذي صنع العجل.

ولكن القرآن يلقي التبعة على شخص آخر غير هرون هو «السامري». يقول الله تعالى: **«قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا، ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها، فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى»** (١٦).

---

(١٣) سورة الأعراف. الآية ١٣٨.
(١٤) سورة النساء. الآية ١٥٣.
(١٥) سورة الاعراف الآية ١٤٨.
(١٦) سورة طه. الآية ٨٧، ٨٨.

بل إن القرآن يكشف بوضوح براءة هارون من اتخاذ العجل، واعتراف السامري بأنه هو الذي تراءت له أفكار التجسيد.

يقول الله سبحانه: **«ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى. قال يا هارون ما منعك إذ رأيتم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري قال يابنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي»**

قال: «فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها، وكذلك سولت لي نفسي» (١٧).

وكذلك أورد القرآن تصور اليهود لله بصفات الضعف والفقر قال تعالى: **«وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» (١٨).**

وقال تعالى: **«لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء» (١٩).**
ويضيف القرآن إلى ذلك التصور أنهم قالوا ببنوة العزير لله، فقال تعالى **(وقالت اليهود عزير بن الله» (٢٠).**

كما أشار القرآن إلى أنهم كانوا يقدسون الأحبار، وذلك يلتقي مع ما قاله المؤرخون من أنهم كانوا يعتقدون أن روح «يهوه» أو الحضرة الالهية «السكينا» تحل في الأشخاص المقدسين.

يقول تعالى:
«اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» (٢١)

---

(١٧) سورة طه الآيات من ٩٠ ـ ٦٩.
(١٨) سورة المائدة الآية ٦٤.
(١٩) سورة آل عمران الآية ١٨١.
(٢٠) سورة المائدة الآية ٦٤.
(٢١) سورة التوبة الآية ٣١.

تقويم التصور اليهودي للألوهية

١ ـ ليس هذا التصور هو التصور الصحيح المطابق للعقيدة التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام. وانما هو تصور بشرى محض.

والأدلة على ذلك كثيرة منها:ـ

ـ «أن الأسفار الخمسة تتناقض فيما بينها، وقد يحدث التناقض في السفر الواحد منها في الصورة التي يقدمها عن الله.

فهي تصفه أحيانا بالقدرة والقوة والخلق، ثم تصفه بالعجز والندم والمرض.

ولما كان المناسب للألوهية إقرار صفات الخلق والقدرة والقوة، فان الصفات الأخرى المنافية للألوهية تكون باطلة ومن ثم تكون دخيلة على التوراة.

وأيا ما كان الأمر، فان هذا التناقض نفسه لا يمكن أن يصدر من متحدث عاقل يدرك ما يقول ويتذكره، فلا يكون صادرا عن إله خالق مبدع، ويكون من اختراع اليهود، بل من اختراع أجيال متفاوتة وأناس عديدين يضع كل منهم في التوراة ما يحلو له، ، لأنها لو كانت من جيل واحد لتقاربت الصور التي تقدمها عن الله إن لم تكن صورة واحدة.

ـ ومن هذه الأدلة ثبوت التحريف في نصوص التوراة.

فاذا كنا قد استنتجنا ثبوت التحريف من التناقض الموجود في النصوص فان نصوص التوراة نفسها تثبت أن هناك تحريفا ظاهرا لا يملك من يطلع على التوراة إلا أن يدركه بسهولة.

وقد أورد الإمام ابن حزم نماذج كثيرة من هذه النصوص منها:ـ

ـ أن في آخر التوراة نص يقول: إن موسى توفي بأرض موءاب ولم يعرف آدمي موضع قبره إلى اليوم، وكان موسى يوم توفي ابن مائة وعشرين سنة لم ينقص بصره ولا تحركت أسنانه فنعاه بنو إسرائيل في أوطنة موءاب ثلاثين يوما وأكملوا نعيه، ثم إن يشوع بن نون امتلأ من روح الله اذ جعل موسى يديه عليه، وسمع له بنو اسرائيل وفعلوا ما أمر الله به موسى، ولم يخلف موسى في بني إسرائيل نبي مثله».

قال ابن حزم: «هذا الفصل شاهد عدل وبرهان تام، ودليل قاطع وحجة صادقة في أن توارتهم مبدلة، وأنها تاريخ مؤلف كتبه لهم من تخرص بجهله أو تعمد بفكره وأنها غير منزلة من عند الله تعالى، إذ لا يمكن أن يكون هذا الفصل منزلا على موسى في حياته، فكان يكون إخبارا عنها لم يكن بمساق ما قد كان، وهذا هو محض الكذب، تعالى الله عن ذلك، وقوله «لم يعرف قبره آدمي إلى اليوم» بيان لما ذكرنا كاف، وأنه تاريخ ألف بعد دهر طويل ولا بد» (٢٢).

---

(٢٢) ابن حزم. الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ ١ ص ١٤٦ ـ ١٤٧. طبعة محمد علي صبيح.

ـ كذلك لاحظ الامام ابن حزم أن في التوراة سبعة وخمسين فصلا في كل فصل منها سبع كذبات أو مناقضات فأقل، سوى ثمانية عشر فصلا يتكاذب فيها نص توراة اليهود مع نص تلك الأخبار بأعيانها عند النصارى، والكذب لائح ولا بد في إحدى الحكايتين (٢٣).

ـ على أن هناك دليلا مؤكدا على أن التوراة محرفة، وهو بالتالي دليل على أن تصور اليهود لله تصور غير حقيقي.

فقد ذكر أحبارهم أن إخوة يوسف إذ باعوا أخاهم طرحوا اللعنة عل كل من بلغ إلى أبيهم حياة ابنه يوسف، ولذلك لم يخبره الله عز وجل بذلك ولا أحد من الملائكة خوفا من أن تقع عليه ـ سبحانه وتعالى عما يقولون ـ لعنتهم (٢٤).

فهنا في هذا التصور يصفون الله ـ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ بأخس الصفات النفسية، وهي صفة الجبن والخوف.

ثبت إذن أن هذا التصور تصور بشري محض لا صلة له بالوحي.

٢ ـ نضيف إلى ذلك أن هذا التصور البشري لا يملك أي حجة على أي فكرة من أفكاره، بل كل أفكاره تسيء إلى المعبود إساءة بالغة ولا تجعله أهلا لأي تقديس.

فقد ورد في التوراة أن الله تمثل رجلا صارع يعقوب، وكان يعقوب يغلبه حتى طلع الصبح، فلما عجز عنه الله ضرب حق فخذ يعقوب فانخلع.

فكيف يعجز الله عن مصارعة إنسان؟ بل كيف يصارعه أصلا؟

بل إن اليهود لا يكادون يتركون صفة من صفات النقص إلا ألحقوها بالله (كما تصوروه).

وعلى سبيل المثال، فانهم قالوا: «اشتكت عيناه فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، وإن العرش ليئط من تحته كأطيط الرحل الحديد، وانه ليفضل من كل جانب أربع أصابع» (٢٥).

جاء في سفر التكوين (٦ : ٥ ـ ٩) أن الرب «حزن على أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم».

وفي نفس السفر (٨: ٢١) أن الرب الذي حزن على خلق الإنسان وقرر إغراقه في الطوفان ندم على ذلك وقرر ألا يعود إلى فعل الطوفان مرة أخرى «وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الانسان . . . ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت».

---

(٢٣) المصدر السابق. نفس الموضع.
(٢٤) المصدر السابق. جـ ٢ . ص ١٤.
(٢٥) الشهرستاني ـ الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠٦ نشرة محمد سيد كيلاني ـ دار المعرفة ـ لبنان.

٣ ـ إن القول بتأويل هذه النصوص الواردة في الأسفار وأن للتوراة ظاهرا وباطنا كما قالته فرقة المقربة من اليهود (٢٦) قول لا يستقيم مع هذه النصوص.

واذا كان هناك نصوص في القرآن والسنة، تصف الله عز وجل بالمجيء والنزول والكلام واليد والاستواء فان الأمر مختلف تمام الاختلاف.
فالأوصاف التي جاءت في النصوص الإسلامية.

(أ) ـ إما أنها تتحدث عن صفات أفعال: كالمجيء والنزول، وهذه صفات لا تبين فيها الكيفية.

(ب) ـ وإما أنها تتحدث عن صفات للذات: كاليد في قوله تعالى «يد الله فوق أيديهم»، أو الوجه في قوله سبحانه «ويبقى وجه ربك» أو الأصابع في قوله صلى الله عليه وسلم (قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن» وهذه صفات تسيغها اللغة بتأويل صحيح.

والنوعان من النصوص ـ التي تتحدث عن صفات الأفعال والتي تتحدث صفات الذات ـ تتسم بوصفين أساسيين:

١ ـ أنها كلها لا تتضمن كيفية من الكيفيات.
٢ ـ أنها كلها لا تصف الله بوصف من صفات النقص.
أما النصوص في التصور اليهودي فتتضمن الأمرين معا.

(١) ـ فهي تتضمن الكيفية، بحيث ترى الكيفية في النص ظاهرة مثل ما جاء في سفر الخروج، من أن شيوخ بني إسرائيل رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق، وكذا السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل ورأوا الله وأكلوا وشربوا.

(٢) ـ وهي تتضمن كما نرى إلحاق صفات العجز والنقص مثل النص على أنه بكى حتى رمدت عيناه أو أن العرش يئط من تحته أطيط الرحل الحديد، وإنه ليفضل من كل جانب أربع أصابع، والنص على أنه ندم على أنه عمل الإنسان وندم على الطوفان وقرر عدم العودة إلى فعله.
ولا يقبل العقل أو تسيغ اللغة تأويل هذه الألفاظ وإخراجها عن ظاهرها.

فلا يقبل إذن إلا أن التصور نفسه فاسد لا يعطي فكرة صحيحة عن الله الحق، وسبب ذلك ما دخل هذا التصور من تيارات مادية.

---

(٢٦) المصدر نفسه جـ ١٧٢. ص ٢١٧.

٢ ـ أثر التيارات المادية على النصرانية

لم تكن النصرانية أحسن حظا من اليهودية، فقد غلبت المادية على هذه كما غلبت على تلك، وإذا كنا قد رأينا سذاجة في التصور اليهودي للألوهية، فاننا هنا نواجه في النصرانية حالة بالغة التعقيد عصية على الفهم البشري.

فالتصور اليهودي ـ مع اعتراضنا عليه ـ كان واضحا في ماديته يلزم خطا محددا هو التشبيه والتجسيم، لكن التصور المسيحي يجمع بين أمور عديدة كلها متناقضة.

١ ـ فهو يحاول أن يجمع بين المادية والمثالية، فالمادية في القول بأن عيسى ابن الانسان، والمثالية في أن هذا الانسان هو الكلمة.

٢ ـ كما يحاول أن يجمع بين القول بوحدة الله كما تصورها التوراة التي يلتزم بها المسيحي كما يلتزم بالأناجيل، وبين التعدد الذي كان موجودا لدى الفلسفات الهندية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

٣ ـ وهي مع ذلك كله تحاول أن تخلع صفات البشر على الله، وصفات الله على البشر.

وتجهد المسيحية في أن تجعل كل ذلك معتقدا واحدا متناسقا، فتقول بإله واحد في ثلاثة، أو ثلاثة في واحد.

ومن هنا كان استعصاؤ ها على الفهم، فلا يستطيع عقل بشري مهما أوتي من قوة أن يدرك معنى أو أبعاد هذا التصور الغامض.

٤ ـ ولذلك اختلفت الأفهام في تفسير الثالوث وتعددت، حتى خرجت المسيحية عن أن تكون تصورا واحدا وإن كان معقدا غامضا، بل تحولت إلى تصورات شتى.

ففي كل عصر تنشأ فرقة أو يعقد مجمع، حتى كثرت الفرق وتعددت المجامع، ولكل منها تفسير يشرح معنى الوحدة والتعدد، وليس هناك بين هذه التفسيرات تفسير أولى من الآخر.

٥ ـ ثم إن الاضطهاد الذي جوبهت به المسيحية جعل المسيحيين الأوائل الذين كانوا يمكن أن تؤخذ منهم العقيدة، يستخفون بعقيدتهم ولا يبوحون بها إلا همسا، فلم تشتهر أو تتواتر عن عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب.

ولذلك فان طريقنا في البحث سيعتمد على :ـ

١ ـ التيارات المادية التي عاصرت نشأة المسيحية.

٢ ـ بيان المسيحية التي جاء بها عيسى عليه الصلاة والسلام، ومقارنتها بالمسيحية التي أخبر بها القرآن الكريم.

٣ ـ الظروف التي آلت إليها المسيحية، وعقد مجمع نيقية وقراراته، وأثر هذه القرارات وخطورتها على المسيحية.

٤ ـ المسيحية الحديثة.

٥ ـ التقويم الموضوعي للتصور المسيحي عن الله.

(١) التيارات المادية التي عاصرت نشأة المسيحية:

نشأت المسيحية ـ كما هو معلوم ـ في فلسطين التي كانت تابعة حينذاك للدولة الرومانية.

وقد انتشرت في الدولة الرومانية في ذلك الوقت جميع التيارات الفكرية والدينية اليونانية، والرومانية، والمصرية، والشرقية، وكانت تغلب عليها جميعا السمة الوثنية المادية التي تسبغ صفة الإله على المادة متمثلة في إنسان أو حيوان.

فرغم الفوارق الدقيقة التي كانت تميز الديانات اليونانية والمصرية والشرقية بعضها عن بعض. إلا أنها كانت تتبادل التأثر والتأثير فيما بينها حتى كان الطابع العام الذي يغلب عليها جميعا أن الآلهة فيها كانت متماثلة إلى درجة التشابه والتطابق أحيانا.

فقد كان رعايا الدولة الرومانية الذين يرتحلون من مكان إلى مكان ينقلون معهم عباداتهم وشعائرهم وينشرونها خارج أوطانهم حيث يرون أيضا عبادات وشعائر متشابهة قد يأخذون بعضها ويضيفونه إلى عقائدهم وشعائرهم الأساسية بحيث امتزجت هذه الديانات بعضها مع بعض في «تأليف ديني شرقي» ذي سمات مشتركة (٢٧).

ويمكننا أن نجد في تلك السمات المشتركة بين الأديان والمذاهب الشرقية، بعض البذور المادية التي انتقلت إلى المسيحية فيما بعد، بحيث طبعتها بطابعها الذي صارت إليه.

فمن هذه السمات المشتركة بين الأديان الشرقية:

ـ تشابه هذه الأديان بأن الآلهة فيها جميعا يموتون ثم يبعثون حسب مدارات السنة، واختلافات الفصول، أو حسب المواسم الزراعية.

ـ كما أن مناطق الدولة الرومانية كانت تتفق تصوراتها حول إله شاب هو ابن لاله أب أو مجموعة آلهة صغيرة ضمن تصور إله كبير.

ـ أن موت الآلهة يصحبه عذاب وأن عذابها وبعثها من أجل إنقاذ الإنسان (٢٨).

---

(٢٧) شارل جنيبير. المسيحية نشأتها وتطورها. ترجمة د. عبدالحليم محمود ص ٧١ ـ ٧٢ المكتبة العصرية. صيدا ـ بيروت، وجورج كونتنو. المدنيات القديمة في الشرق الأدنى ترجمة. متري شماس ص ٣٢ ـ ٤٣. المنشورات المصرية.

(٢٨) المصدران السابقان. نفس المواضع.

فاذا انتقلنا من خصائص هذه الديانات إلى خصائص المذاهب الفكرية، أمكننا أن ندرك فيها بعض العناصر المادية المؤثرة في المسيحية.

فالفيثاغورية ـ وقد عرفت في فلسطين حين نشأت المسيحية ـ كان من عناصرها ـ رغم أنها مذهب روحاني في غالبه ـ أن فيثاغورس ابن الاله «ابوللون» وأنه لم يمت وسيبعث بعد حين وأن الروح غريبة على الجسد وأن الناس درجات: بشر وأنصاف من بشر وآلهة وفيثاغورس احد هؤلاء (٢٩).

وإذا كانت الفيثاغورية قد عرفت في فلسطين فقد عرفت أيضا لدى المثقفين فلسفتا الرواقية والأبيقورية (٣٠).

والفلسفة الرواقية مترددة بين الواحدية والثنائية في العالم، فهي تقول إن العالم كله شيء واحد مادي، ومع ذلك تقول بوجود عقل عام، أو نار، أو روح سارية في الكون هي مبدأ وجوده ومصدر حركته. هو القانون العام وهو العقل «اللوجوس» ومع أنه جسمي مادي فهو متداخل في الموجودات تداخل البخار في الهواء.

فالإله إذن عند الرواقيين إله مادي. هو جسم، هو تلك النار اللطيفة او النفس الحار الساري في الأبدان والأجسام وهو العقل المدبر، وما العقل في كل إنسان إلا جزء من هذا العقل الكلي الذي يدبر الوجود.

أما الفلسفة الأبيقورية، فقد عززت القول بمادية الإله إذ كانت ترى أن الالهة مادية وان كان أبيقور قد أضاف فكرة ان الالهة لا يعكر صفوها ان تهتم بأمور العالم والناس وتدبر أمورهم وقد سبقه في هذه الفكرة أرسطو (٣١).

ولعلنا نلمح من فكرتي الرواقية والأبيقورية أن الإله مادي وأن الآلهة في وجود سعيد دائم لا يعكره الاشتغال بأمور العالم، بوادر الفكرة المسيحية في القول بإله مادي هو عيسى كما تقول المسيحية. وبإله آب لا يعمل شيئا في العالم وإنما ينوب عنه ابنه الذي هو من جوهره.

فاذا انتقلنا من الخصائص العامة إلى تفاصيل الديانات التي كانت منتشرة في الدولة الرومانية ووقفنا عندها فإن البحث يهدينا بدوره إلى عناصر كانت ذات تأثير بالغ في عقائد المسيحية وشعائرها فيما بعد.

ففي الديانة اليونانية القديمة: نستطيع أن نرصد بعض الأفكار المؤثرة في المسيحية مثل فكرة زواج الإله زيوس من الالهة «ثيمس» التي ولدت له «بنوميا» و«دايك»

---

(٢٩) عباس محمود العقاد. حياة المسيح. ص ٨٦، ٨٧. دار الكتاب العربي بيروت.

(٣٠) المصدر نفسه. نفس الصفحة.

(٣١) راجع برتراندراسل. تاريخ الفلسفة الغربية جـ ١ ص ٣٧٥ ود. عثمان أمين الفلسفة الرواقية ١٨٢ - ١٨٣ مكتبة الانجلو المصرية ط ١٩٧١.

و«إيرين»، ومثل عقيدة الاورفية (نسبة الى «أورفيوس») التي تذهب إلى أن العدالة تجلس بجانب «زيوس» على العرش تراقب الحوادث الأرضية كما تذهب إلى أن الاله «دينسيوس» كان إلها للنبيذ والخمر وأصبح عند الأورفية إله التضحية أي ابن الله الذي مات لينجي البشر (٣٢).

كذلك يمكن أن نرصد في عقيدة أورفيوس اليونانية القديمة كثيرا من المشابهات بينها وبين المسيحية.

يقول الدكتور حسام محي الدين الألوسي : من الطريف أن يلاحظ القارىء الشبه الكبير بين كثير من عناصر هذه النحلة والعناصر الهامة للمسيحية، ففي كليهما :-

١ ـ الاعتراف بأم إلهة.

٢ ـ فكرة العشاء الرباني.

٣ ـ الزواج بين زيوس وديمتر، وفي مقابل ذلك في المسيحية دخول روح الله أو ابنه في جسد مريم.

٤ ـ ولادة طفل مقدس.

٥ ـ التطهير والاستحمام في الماء والصوم، بل والمسح بالبرهان أو التعميد حيث مسحت ديمتر ابن مضيفيها وباركتهم (٣٣).

كما يضيف الدكتور «الألوسي» فكرة الأورفية التي تذهب إلى أن الاله «دينسيوس» له وجودات ثلاثة فهو واحد وثلاثة معا إن له وجودا أولا عندما كان موجودا بالفعل في شخص فانس ووجودا ثانيا كابن لكورة أو بيرسفوني ثم وجودا ثالثا كدنيسيوس الجديد الذي عاد من الموت إلى الحياة (٣٤).

فاذا أضفنا إلى ما تقدم صورة الإلهة «ايزيس» في الديانة المصرية القديمة وصورة الإله «مثرا» في الديانة الفارسية تكون الصورة قد اكتملت تقريبا عن البذور المادية في ثقافة وديانات عصر نشأة المسيحية، وأثرها في هذه الديانة.

فقد كان المصريون القدماء يصورون «إيزيس» تمثل الأمومة، ويوحدون بينها وبين القمر، ويرسمون لها صفة جميلة، تمثل الطهارة وفي حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه، رمزا للأمومة والبر والبراءة(٣٥).

كذلك كانت الديانة الشرقية في فارس «المثراسية» تمثل«مثرا» إله الشمس يولد في جسد آدمي ويتجسد في انسان، كما كانت تقدس تناول الخبز والخمر (٣٦).

---

(٣٢) الدكتور حسام محي الدين الألوسي. من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان ص ٢٣٧، ٢٣٨.

(٣٣) المصدر السابق ص ٢٣٨.

(٣٤) المصدر نفسه ص ٢٤٤.

(٣٥) عباس العقاد. حياة المسيح ص ٨٠ دار الكتاب العربي ط ٢ بيروت ١٩٦٩.

(٣٦) المصدر نفسه، نفس الموضوع.

وقد أورد الدكتور أحمد شلبي عن «روبرتسون» المشابهات الكثيرة بين الديانة الميثراسية والمسيحية في أهم العناصر، من أن ميثرا كان وسيطا بين الله والبشر، وأنه ولد في الخامس والعشرين من ديسمبر، وأنه مات ليخلص البشر من خطاياهم ودفن وعاد إلى الحياة وقام من قبره وصعد إلى السماء أمام تلاميذه وهم يبتهلون له ويركعون. . . الخ (٣٧).

ولقد كان من الطبيعي أن يتأثر الإسرائيليون بهذه التيارات الدينية والفكرية التي راجت في الدولة الرومانية إبان مولد المسيح ومبعثه وينبع منهم الفيلسوف اليهودي الذائع الصيت «فيلون الاسكندري» الذي عاش فيما بين سنتي (٢٠ أو ٣٠ قبل الميلاد) (و٥٤ من الميلاد) أي أنه كان معاصرا لبعثة المسيح ومعاصرا في الوقت نفسه للحواريين (٣٩) ولبولس على وجه الخصوص، ودرس الفلسفة اليونانية وسائر الفلسفات المعروفة حينذاك.

وقد تأثر فيلون أكثر ما تأثر بالفلسفة الرواقية خاصة وبالفلسفة اليونانية عامة، فهو يأخذ من الرواقية ذلك الحلول التصوفي الذي يؤكد أن العالم كأنه ذاهب في الألوهية وأن كل شيء مفعم بالله حتى أن الاعتقاد بحقيقة وجود العالم يحول لونه أو يتضاءل بجانب هذا الإحساس بأن الله هو «واحد وكل» (٤٠) وحينما يسمى فيلون إلهه الأعلى والأسمى مخلصا أو منجيا حامل النصر محسنا، رازقا كريما تراه يعطي لهذا الإله صفات ترى كثيرا مطبقة على الآلهة الإغريقية)) (٤١).

ولعل أهم ما تراه - في هذا المقام - من فلسفة فيلون: قوله بوجود كائنات صادرة عن الله مباشرة هي الحكمة، والمثل، أو هي العقول المحضة، وأن الكائنات مترتبة حسب صدورها عن الله فخيرها هي التي توجد عن الله مباشرة أو من الكائن الآخر الذي يعتبر وسيطا له اما الكائنات الأخرى فلا تكون عن الاله مباشرة ولكن عن كائنات متوسطة أدنى منه. . . فالكائن لا يمكن أن يوجد عن الاله وحده إلا في حدود قدرة هذا الكائن، على تلقي الخيرية عن الله وأثر الإله على الكائنات الأدنى الناقصة لا يمكن أن يكون إلا بكائنات متوسطة أكثر كما لا من تلك.

واذن - كما يقول «بريهييه». تكون الفكرة التي أدخلها فيلون في الفلسفة هي فكرة الإيجاد على درجات مختلفة وبواسطات كائنات وسطاء بين الموجد والعام (٤٢).

---

(٣٧)، (٣٨) دكتور أحمد شلبي. المسيحية. ص ١٥٤ مكتبة النهضة المصرية ط ١٩٧٣/٤.

(٣٩) إميل بريهييه. الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الاسكندري. مقدمة المترجين د. محمد يوسف موسى، ود. عبدالحليم النجار، طبعة الحلبي بمصر ١٩٥٤.

(٤٠) المصدر السابق ١٠٩.

(٤١) المصدر نفسه ١١٠.

(٤٢) المصدر نفسه ١٢٠.

على أن هناك فكرة أخرى لفيلون، لا تقل أهمية في بحثنا هذا ويجب أن نلاحظ أثرها فيما بعد في المسيحية، وهي أن فيلون جعل القوة التي تدبر العالم (اللوجوس بالمعنى الرواقي) والكلمة الالهية الموحى بها شيئا واحدا.

وبهذا يكون اللوجوس عند فيلون هو الكلمة الالهية ويسميه ابن الله الأكبر، او ابن الله البكر، الذي أمطر عليه نعمه البكر الخالدة (٤٣).

هكذا تجتمع لنا خيوط التيارات والأفكار الفلسفية والدينية المادية التي راجت في الدولة الرومانية إبان عهد المسيح وبعده، وألم بها القديس بولس الذي ولد في طرسوس وبها جامعة تدرس هذه الأفكار جميعا، وعاش في فلسطين، وكانت كل من طرسوس وفلسطين ملتقى لكل هذه التيارات الثقافية مما يجعلنا نضع موضع العناية والاهتمام قول الاستاذ شارل جنيبير (أستاذ تاريخ المسيحية في جامعة باريس).

«الدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار يبدو لأول وهلة غريبا حقا: مزيج من دعوى الاثني عشر الأساسية (الحواريين) ومن الأفكار اليهودية التي يرجع بعضها مباشرة إلى النصوص المقدسة القديمة، بينما يرجع البعض الآخر الى اعتبارات دينية حديثة نسبيا، ثم من المفاهيم المنتشرة في الأوساط الوثنية الرومانية ومن الذكريات الانجيلية والأساطير الدينية الشرقية (٤٤)».

٢ ـ المسيحية التي جاء بها عيسى عليه الصلاة والسلام (٤٥):

نستطيع أن نجد في الأناجيل شواهد على:

(أ) وحدانية الله.
(ب) بشرية عيسى.
(جـ) خصوص رسالته عليه السلام لبني اسرائيل فقط.

(أ) ففي إنجيل متى (٢٣ : ٩) «ان أباكم واحد الذي في السموات».

وفي انجيل مرقس (١٢ : ٣٢) يقول «لأنه الله واحد، وليس آخر سواه».

---

(٤٣) نفس المصدر ١٤٤ ـ ١٥٢.

(٤٤) شارل جنيبير. المسيحية. نشأتها وتطورها. ترجمة د. عبدالحليم محمود ص ٧٠ المكتبة العصرية. بيروت.

(٤٥) انظر: د/ أحمد شلبي. المسيحية ٢٤٥ مكتبة النهضة المصرية ط ٤ ومحمد أبو زهرة. محاضرات في النصرانية.

(ب) وبخصوص بشرية عيسى وأنه رسول فقط يقول: لأني خرجت من قبل الله وأتيت. لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني (٤٦).

(جـ) وبخصوص رسالته الخاصة إلى بني اسرائيل يتردد قول المسيح: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (إنجيل متى ١٥: ٢١ - ٢٤).

وهذه النقاط بعينها هي التي يؤكدها القرآن الكريم.

(أ) فعن وحدانية الله: يقول الله تعالى: «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم» (٤٧).

ويقول الله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون» (٤٨).

(ب) وعن بشرية عيسى أفاضت آيات القرآن في انه لم يكن الا بشرا، رغم ولادته من غير أب، وليس ثمة غرابة فآدم قد ولد من غير أب وأم.

يقول الله تعالى «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» (٥٠).

ويؤكد القرآن في حق عيسى معنيين أساسيين:

١ - أنه ليس إلها، إذ يقول الله تعالى «واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك. مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك. إنك انت علام الغيوب. ماقلت لهم إلا ماأمرتني به. أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم. فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد» (٥١).

كما يقول تعالى «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم. وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار» (٥٢).

---

(٤٦) انجيل يوحنا (٨: ٤٢).

(٤٧) سورة المائدة ٧٣.

(٤٨) سورة التوبة الآية ٣١.

(٤٩) سورة آل عمران الآية ٥٩.

(٥٠) سورة المائدة الآية ٧٥.

(٥١) سورة المائدة الآية ١١٦ - ١١٧.

(٥٢) سورة المائدة ٧٣.

٢ ـ أنه ليس ابنا لله، إذ يقول الله تعالى «وقالت اليهود عزير بن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أني يؤفكون» (٥٣).

وفي هذا الإطار العام الذي رسمه القرآن لعيسى من أنه بشر وليس الها يجب أن نفهم قول القرآن عنه أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، في قوله تعالى «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافي السموات والأرض وكفى بالله وكيلا» (٥٤).

فالكلمة هي أمر التكوين، وقد أشار إليها القرآن عندما أكد الله عز وجل أن أمره إذا أراد أن يقول له كلمة «كن» فيتحقق المراد بلا تراخ، قال تعالى «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» (٥٥).

والروح التي من الله في عيسى هي التي في كل بشر من لدن آدم عليه السلام إلى آخر الدهر وهي التي أشار اليها عز وجل في قوله «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» (٥٦).

ولذلك ينفي القرآن في نفس الآية التعدد وكون المسيح ولدا لله «ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد».

أما لماذا ولد المسيح من غير أب؟

يقول الشيخ محمد أبو زهرة «إنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان:-

أحدهما: ان ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى وانه الفاعل المختار المريد وأنه سبحانه لا يتقيد تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها في نظام.

فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله، والأشياء لم تصدر عنه سبحانه صدور المعلول عن علته، وخلق عيسى من غير أب إعلاء لهذه الإرادة الأزلية، بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية، وفي عصر ساده نوع من الفلسفة أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول كالعلة عن معلولها فكان عيسى آية الله على أنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية بل العالم كله بإرادته.

---

(٥٣) سورة التوبة الآية ٣٠.

(٥٤) سورة النساء الآية ١٧١.

(٥٥) سورة يس الآية ٨٣.

(٥٦) سورة الحجر الآية ٢٩.

والأمر الثاني: أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب إعلاء لعالم الروح بين قوم أنكروها، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه، وأنه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها. فلقد قيل عن اليهود أنهم كانوا لا يعرفون الإنسان إلا جسما عضويا ولا يقرون أنه جسم وروح.

ولقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بأنها الدم، فقد جاء فيها «لا تأكلوا دم جسم ما. لأن نفس كل جسم هي دمه» (٥٧) »

ويؤيد هذا أيضا ذلك التصور المادي عن الألوهية الذي عرضنا بالتفصيل من قبل وأنهم لم يكونوا يرون غير المادة، فمجيء المسيح على هذه الصورة إثبات لهم أن هنالك شيئا غير المادة، وهي الروح.

ولذلك كانت معجزاته عليه السلام في نفس الاتجاه تأكيدا لأمر الروح الذي يردها إلى الميت بأمر الله.

وينفرد القرآن عن الكتب المتداولة بين اليهود والنصارى ببيان أن نهاية عيسى على الأرض لم تكن قتلا وصلبا. وإنما كانت نجاة له. إذ لم يمكن الله أعداءه منه. ورفعه الله إليه بعد أن ألقى شبهه على غيره فقتل الشبيه وصلب، أما عيسى فقد رفع إلى السماء.

يقول تعالى : **«وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم . وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه . وكان الله عزيزا حكيما»** .
(سورة النساء ١٥٧)

ويقول تعالى **«إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون»** (٥٨)

وقد اختلف مفسرو القرآن الكريم في كيفية رفع عيسى عليه السلام مما لا مجال لتفصيله هنا، ونحن في سياق عرض العقيدة المسيحية من القرآن الكريم (٥٩)

ويؤكد القرآن أن عيسى سينزل مرة أخرى حاكما بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وسيكون نزوله علامة كبرى من علامات الساعة، يقول تعالى: **«وإنه لعلم الساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم»** (٦٠) ويقول تعالى **«وإن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا»** (٦١)

---

(٥٧) محمد أبو زهرة. محاضرات في النصرانية ١٧، ١٨ دار الفكر العربي القاهرة.
(٥٨) سورة آل عمران الآية ٥٥.
(٥٩) انظر تفصيل هذا البحث د. أحمد شلبي. المسيحية ٣٨ ـ ٥٢ ومجلة لواء الاسلام أبريل سنة ١٩٦٣.
(٦٠) سورة الزخرف الآية ٦١.
(٦١) سورة النساء الآية ١٥٩.

(جـ) ويبين القرآن بوضوح أن رسالة عيسى لم تكن إلا لبني اسرائيل خاصة ، قال تعالى «ورسولا إلى بني إسرائيل» (٦٢) كما قال تعالى «وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة، ومبشرا برسول يأتي من بعدي إسمه أحمد» (٦٣).

وإلى هنا نلاحظ أن إشارات الأناجيل وأعمال الرسل إلى المبادىء التي دعا إليها المسيح، من وحدانية الله. وبشرية الرسول عيسى عليه الصلاة والسلام، وأمه مريم البتول، وخصوص دعوته لبني إسرائيل لم تكن إلا إشارات سريعة وإن كانت واضحة في مقابل القرآن الذي فصل هذه المبادىء بوضوح، وأقام عليها الأدلة والحجج.

أما الأناجيل فقد امتلأت بعقيدة أخرى تغاير تماما العقيدة التي تضمنتها الإشارات السابقة الذكر، وفصلتها آيات القرآن الكريم. فلماذا؟

قبل أن نعرض العقيدة التي امتلأت بها الأناجيل وهي عقيدة التثليث وألوهية المسيح وصلبه. نرى لزاما علينا أن نعرض للظروف التي أدت لظهور هذه العقائد لنفهمها في سياقها التاريخي وتطورها الفكري.

٢ ـ الظروف التي آلت اليها المسيحية:

كان من الممكن أن تظل المسيحية على صفائها الذي أشارت إليه الأناجيل وأوضحه القرآن الكريم، من توحيد الله وبشرية المسيح، ولكن ظروفا تاريخية أدت إلى تحولها تحولا كبيرا عن مبدئها الحقيقي.

من هذه الظروف:

* الاضطهاد.

والاضطهاد له في تاريخ في المسيحية شأن كبير ومؤثر، وهو اضطهاد متنوع، فهناك اضطهاد وقع على المسيحيين من الرومان الوثنيين. وهناك اضطهاد وقع من المسيحيين على إخوانهم في الدين من الذين خالفوهم في الرأي وهم كثيرون بكثرة الاختلافات في التفسير وفهم الثالوث الشديد التعقيد، وهناك اضطهادات وقعت من رجال الكنيسة ضد أنصار العلم وحرية الرأي.

ولكننا يعنينا هنا ـ ونحن نبحث عن أثر الاضطهاد في تحول المسيحية عن التوحيد إلى التثليث ـ أن نركز على الاضطهاد الذي أوقعه أباطرة الرومان واليهود على المسيحيين الأوائل، في القرون الثلاثة الأولى للميلاد.

---

(٦٢) سورة آل عمران الآية ٤٩.
(٦٣) سورة الصف الآية ٦.

والواقع أن المسيحية جوبهت بأشد أنواع الأذى من قبل اليهود الذين رأوا في المسيح ودعوته خطرا شديدا عليهم. إذ كانت دعوته تأمرهم بالتخلي عن ماديتهم التي درجوا عليها. وتسوى بينهم وبين الضعاف والفقراء.

ولم يكن الرومان متحمسين في بداية الأمر لاضطهاد المسيح ومن معه. إلا أن اليهود هم الذين أغروا الحاكم الروماني وخوفوه من مغبة تركه دون عقاب، حتى انتهى الأمر إلى ما انتهى اليه.

وتعاقب قياصرة الرومان على تعذيب المسيحيين وقتلهم أينما كانوا، خاصة في عهد «نيرون» الذي حملهم مسؤ ولية إحراق روما ونكل بهم أشد التنكيل بحيث كان يضع بعضهم في جلود الحيوانات ويرميهم للكلاب فتنهشهم. وكان يصلب بعضهم، كما كان يلبس بعضهم ثيابا مطلية بالقار ويشعل فيهم النار، لتكون مشاعل يستضيء بها، ويقيم على نارها أو نورها الاحتفالات في حدائق قصره.

وكان النصاري في هذا القرن والقرن الذي تلاه. (القرن الثاني) يعتبرون أنجاسا ممنوعين من الدخول إلى الحمامات والمحال العامة، وكانوا يلقى بهم طعاما للحيوانات والوحوش الضارية في ميادين عامة، لتفترسهم أمام خصومهم الذين كانوا يجتمعون للاستمتاع بهذه المناظر.

فلما جاء «دقلديانوس» في القرن الثالث الميلادي قام بتصفية عامة فأحرق الكتب المسيحية وهدم الكنائس واعتقل رجال الدين وسامهم ألوان العذاب بالسياط والمخالب الحديدية أو الأحراق بالنار، أو التقطيع إربا إربا. ولكثرة ما استشهد منهم سمي عصر دقلديانوس «عصر الشهداء» (٢٨٤ ـ ٣٠٥) (٦٤)

لكن الأمور تحولت إلى النقيض في مطلع القرن الرابع بتولي الامبراطور قسطنطين وإصداره العفو العام والتسامح.

وكان هذا الامبراطور علامة تحول في تاريخ المسيحيين. بل في تاريخ ومبادىء المسيحية نفسها.

وقبل أن نقف على تفصيل ما فعله هذا الإمبراطور في المسيحية نريد أن نقف وقفة تأمل لنرصد نتائج الاضطهاد:ـ

١ ـ تسبب الاضطهاد بطبيعة الحال في عدم تمكن النصارى من تدوين المصادر الحقيقية للدين، لأن عملية التدوين والجمع والتوثيق تحتاج إلى وضع كاف من الاستقرار.

ولذلك اختلطت الحقيقة بغيرها في الأناجيل وتضاربت فيا بينها، وفقدت سندها المتصل بعيسى عليه السلام.

---

(٦٤) زكي شنوده، تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١٠٨ ـ ١١٠ و د. توفيق الطويل، الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ص ٤٠، نقلا عن د. أحمد شلبي، المسيحية ٦٥.

كما كان من نتائج الاضطهاد اختلاف الآراء في الديانة، خاصة فيما يتعلق بأصولها الأساسية. وأهمها طبيعة المسيح هل هي بشرية أو هي إلهية. نتيجة أن النقل غير منضبط عن المسيح. وكان مجالا للأخذ والرد والزيادة والنقصان دون ضابط من المراجعة والتحقيق والتدقيق في تمحيص الروايات.

وبقدر ما كانت الاضطهادات سببا من أسباب عدم إتاحة الفرصة للمراجعة والتثبت والتحقق، فقد كانت سببا لتواري هذه الخلافات وعدم ظهورها على السطح حينا من الدهر.

حتى تولي الامبراطور «قسطنطين» فرأى أن الخلافات بين الفرق المسيحية قد جاوزت حدها. وتشتت الناس بسببها تشتتا عظيما، فأراد ان يجمعهم على قول واحد في طبيعة المسيح، فدعا إلى مجمع «نيقية» سنة ٣٢٥ م.

وكان أبرز الآراء في هذا المجمع :-

١ - رأي «آريوس» الذي كان يقول إن الآب وحده الله، والابن مخلوق مصنوع. وقد كان الآب إذ لم يكن الابن.

وكان «آريوس» في مصر داعية قوي الحجة واضح الأسلوب. فاكتسب لرأيه أنصارا في الاسكندرية وأسيوط وفلسطين ومقدونية والقسطنطينية، ولكن الكنيسة في الاسكندرية كانت تعارضه.

٢ - رأي «بولس» القائل بألوهية المسيح.

ومع هذين الرأيين يصور «ابن البطريق» حال المؤتمر فيقول: (٦٥)'بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة والأساقفة وكانوا مختلفين في الآراء والأديان.

فمنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله. وهم البربرانية ويسمون المريميين.

ومنهم من كان يقول: «ان المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها. وهي مقالة سايليوس وشيعته.

ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب. لأن الكلمة دخلت في أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة البيان وإشياعه.

ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره. وأن ابتداء الابن من مريم. وأنه اصطفى ليكون مخلصا للجور الانسي صحبته النعمة الالهية وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله ويقولون: الله جوهر قديم

(٦٥) عن ابن حزم، الفصل في الملل والنحل جـ ١ ص ٣٩ طبعه صبيح ومحمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية ص ١٢٤.

واحد، واقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء. ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح المقدس، وهي مقالة بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية وأشياعه، وهم البوليقانيون.

ومنهم من كان يقول: «إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، وطالح، وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه وزعموا أن مرقيون رئيس الحواريين وأنكروا بطرس».

ومن الطبيعي في هذا الاجتماع أن يتاح لكل فريق أن يبدي رأيه وحججه بعد أن قلدهم «قسطنطين» مملكته قائلا: «سلطكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا، مما فيه قوام الدين».

ويقول «الشيخ محمد أبو زهرة»: إن الرواة يقولون إن أريوس لما اجتمع بهم، وألقى دعوته ونحلته إليهم انضم الى آرائه أكثر من سبعمائة أسقف، وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المختلفة.

ولكن قسطنطين جمع ثمانية عشر وثلاثمائة أسقفا في مجلس خاص بهم وحضر هو ذلك المجلس. وأعطاهم شارة الملك والسلطان لأنهم أفلجوا على إخوانهم «في زعم ابن البطريق المسيحي التثليثي» وقرر هذا المجلس الوهية المسيح واتفقوا على قولهم:-

- «نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى».

- وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها. الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بموضوع. إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم. وخلق كل شيء ومن اجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار انسانا وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب أيام «فيلاطوس» ودفن، ثم قام في اليوم الثالث وصعد السماء وجلس عن يمين أبيه. وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بين الأموات والأحياء.

- ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه وبعمودية واحدة لغفران الخطايا.

- وبجماعة واحدة قديسة مسيحية.

وبقيام أبداننا وبالحياة الدائمة أبد الآبدين (٦٧) وقد خالفهم فى ذلك سبعمائة أسقف ان لم يكونوا متفقين على نحلة واحدة.

والسؤال هنا: لماذا ناصر قسطنطين رأى هؤلاء دون أن يكونوا هم الأغلبية؟ ولماذا لم يناصر رأي أريوس وقد كانوا اكثر من ذلك؟ وكيف حكم بأن هؤلاء الثمانية عشر والثلاثمائة أفلجوا على غيرهم؟.

---

(٦٦) محاضرات في النصرانية ١٢٦.

(٦٧) انظر أيضا: الشهرستاني، الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٣ تحقيق محمد سيد كيلاني.

ان الشيخ «محمد أبو زهرة» يعلل ذلك بأن «قسطنطين» كان له في هذا أرب خاص، وهو تقريب المسيحية من الوثنية التي كان يدين بها حتى ذلك الوقت، فقد نقل عن المؤرخ ابو سيبوس الذي تقدس كلامه الكنيسة وتسميه سلطان المؤرخين أن قسطنطين عمد حين كان أسير الفراش والذي عمده هو ذلك المؤرخ نفسه وقد كان له صديقا.

وعلى الأقل فان قسطنطين عندما رجح رأي فريق على فريق كان يرجح ما هو أقرب إلى الوثنية، وأدنى إلى ما يعرفه من عقيدة (٦٨)

وعلى أية حال، كانت هذه قرارات مجمع نيقية وخلفياتها التاريخية والدينية، وهي وإن تكن قد وضعت أساس التثليث وأسبغت صفات الاله على المادة وصفات المادة على الاله. وأعطت ذلك الخليط المادي صفة الشرعية فقد وجدت معارضات تمثلت في عدة مجامع عقدت لتنكر ألوهية المسيح، خاصة مجمع «صور» الذي عقد مباشرة بعد مجمع نيقية وقرر بالاجماع أن المسيح بشر وليس إلها.

لكن المشكلة لم تنته ولم يسكت الحوار والخلاف بمجمع نيقية. أو بمجمع صور، أو بغيرها من المجامع. بل ظل الأمر مثار أخذ ورد وجدل وازدادت الانشقاقات العديدة في المسيحية بنشأة الفرق وتفرق الكنائس حول طبيعة المسيح وأحقية الثالوث إلا أن مجمع نيقية في الحقيقة ظل هو الأساس الذي دارت حوله المعتقدات والتفسيرات في الأغلب الأعم.

المسيحية الحديثة:

ولأن إستعراض التاريخ لا يهمنا بقدر ما يهمنا الوقوف على التصور المادي في المسيحية، فإننا نختار الوقوف عند التصور النهائي للمسيحية الحديثة بعد أن عرفنا أساس هذا التصور في مجمع نيقية الذي عد ذلك أساسا للمسيحية عبر العصور فرغم كثرة الفرق فهي تشترك - كما قلنا - في هذا الأساس ولا تختلف في الحقيقة إلا في التعبير عنه وصور تفسيره.

فنوفل بن نعمة الله بن جرجس (٦٩) يصور هذه العقيدة بقوله:

«عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس وهي أصل الدستور الذي بين المجمع النبقاوي هي:

- الايمان بالله، واحد، آب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض كل ما يرى، وما لا يرى.

(٦٨) محمد أبو زهرة. محاضرات في النصرانية ١٢٨.
(٦٩) نقلا عن الشيخ محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية ٥٩.

ـ وبرب واحد، يسوع الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله. إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر الذي كان به كل شيء والذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل الجوهر الذي به كان كل شيء والذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر وقام من الأموات، في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه.
ـ والايمان بالروح القدس الرب المحي المنبثق من الآب الذي هو مع الابن يسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء.

وهكذا لا تخرج المسيحية كما تصورها المراجع الحديثة عن مسيحية بولس التي أقرها مجمع نيقية. إلا أنهم يضيفون إليها ـ لغموضها ـ الشروح والتفسيرات في محاولة لتقريب هذه المتناقضات إلى العقول.

فالقس «بوطر» في «رسالة الأصول والفروع» يؤكد أن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الاقنيم وكل من أنار الله ذهنه وفتح قلبه فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن ينسى الكلمة بمجرد أمر من الله أو قول مفرد ولا ينسى الروح بالقوة التأثيرية.

بل لا بد له أن يعلم في اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين في الكمالات الإلهية وممتازين في الاسم والعمل. والكلمة والروح القدس اثنان منهم ويدعى الأقنوم الأول الآب، ويظهر من هذه التسمية أنها مصدر كل الأشياء ومرجعها وأن نسبته للكلمة ليست صورية بل شخصية حقيقية ويمثل للأفهام محبته الفائقة وحكمته الرائعة ويدعى الأقنوم الثاني الكلمة لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس.

ويدعى أيضا الابن لأنه يمثل العقل نسبة المحبة والوحدة بينه وبين أبيه وطاعته الكاملة لمشيئته والتمييز بين نسبته هو إلى أبيه ونسبة كل الأشياء ويدعى الأقنوم الثالث الروح القدس للدلالة على النسبة بينه وبين الآب والابن، وعلى عمله في تنوير أرواح البشر وحثهم على طاعته. (٧٠)

والمسيحيون لا يقصدون بابن الله الولادة البشرية فقد فسر القس إبراهيم سعيد معنى كلمة «ابن العلي» التي وردت في إنجيل لوقا، أن هذه الكلمة، لم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله وإلا قيل ولد الله ولم يعد لها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعا أنهم أبناء الله لأن نسبة المسيح هي غير نسبة المؤمنين عامة لله، ولم يقصد بها تفرقة في المقام من حيث الكبير والصغير ولا الزمنية ولا في الجوهر لكنه تعبير يكشف لنا عن عمق المحبة السرية التي بين المسيح والله. (٧١)

---

(٧٠) نقلا عن المصدر السابق ص ١١٤ دار الفكر العربي.
(٧١) نفس المصدر السابق في نفس الصفحة والطبعة.

وهم يجمعون على أن هذه العقيدة لن تفهم في هذه الحياة بشكل كامل فالقس «بوطر» يقول «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض» (٧٢)

ويقول الأب «يوحنا قمير» (٧٣) :-

«في ثالوث النصارى إثنان» :-

- العقيدة الإيمانية.

- والمحاولات العقلية لشرح هذه العقيدة».

أما العقيدة الإيمانية، كما جاءت في كتب الوحي فهي هذه: الله واحد وهو آب وابن وروح قدس.

وهذه حقيقة تفوق إدراك العقل البشري.

أما الشروح العقلية للعقيدة فهي محاولات غايتها تقريب العقيدة إلى الافهام على نحو يسلم معه الوحي ويرى العقل ما يستطيع أن يراه.

ويقول:

إن لله - إذا نظرنا إليه في ذاته قبل أي خلق - صفات مطلقة كالحياة والقداسة مثلا، وأن فيه أيضا إضافات هي الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس».

ولعلنا نلاحظ أن «الأب يوحنا» جعل الأقانيم إضافات للذات بعد أن كان القس «بوطر» قد جعلها متساوية مع الله في الكمالات الإلهية وممتازة عنه في الاسم والعمل.

ولكن ما حقيقة هذه الأقانيم، وما علاقتها بالذات.

يقول يوحنا قمير: «إن الله روح، ومن أخص قوى الروح العقل والإرادة ومن أخص أفعاله المعرفة والحب.

حين يعرف الإنسان شيئا تتكون لديه فكرة عن هذا الشيء يجسمها عادة في كلمة وحين عرف الله نفسه، تكونت لديه فكرة عن طبيعته مطابقة للأصل كل مطابقة.

هذه الفكرة هي ما دعاه الكتاب صورة الآب، وكلمة الآب وابن الآب هي صورته لأنها مثل له. وهي كلمته لأنها تعبير كامل عنه. وهي ابنه لأنها ولادة عقلية عنه.

عرف الله نفسه في صورته أو كلمته - في ابنه - فأحب نفسه فيه. هذا الحب المنبثق عن هذه المعرفة دعاه الكتاب، هبة الآب أو روحه القدس، هو هبته لأن الحب عطاء وهو روحه لأن الحب هبة روح المحبوب. الآب، والابن والروح القدس ثلاثة في إله واحد.

الله آب لأنه - بفعل عقلي يشبه الولادة - انبثق عنه الابن.

والابن ابن لأنه عن الآب صدر.

أما الروح القدس فهو حب الآب والابن.

---

(٧٢) نفس المصدر ص ١١٦.

(٧٣) في كتابة عن ابن رشد جـ ٢ حاشية ص ٣٩. المطبعة الكاثوليكية - بيروت.

الأبوة في الله لا تزيد شيئا على طبيعة الله لأنها محض إضافة، والنبوة في الله إضافة إيضا، لا تزيد شيئا، ومثلها حب الآب والابن أو الروح القدس.

الآب والابن والروح القدس، إضافات في طبيعة الله والاضافات لا تؤثر في نفس الطبيعة. ولا تحدث كثرة أو تركيبا.

لهذا يظل الله واحدا بسيطا لأن الطبيعة واحدة بسيطة رغم تثبيت الإضافات أو الأقانيم.

ولعل هذا التفسير الذي يقدمه يوحنا قمير هو أحدث التفاسير على حد علمنا للأقانيم.

على أن القول بأنها إضافات لا تحدث كثرة أو تركيبا في طبيعة الذات الإلهية لا يحل المشكلة، لأنها إذا كانت إضافات في الذات الإلهية فما علاقة هذه الإضافات بشخص المسيح البشري؟؟.

إن إلحاق شخصه البشري بإضافة من إضافات الذات الإلهية على هذا التفسير يلحق الكثرة والتركيب في ذات الله.

وعلى كل حال، سنترك مناقشة التصور المسيحي كله للتقويم الموضوعي بعد أن أوردنا بأمانة كاملة تفسيرات العقيدة المسيحية من المسيحيين أنفسهم دون أن نتدخل بشيء.

تقويم التصور المسيحي للألوهية

أول ما نلحظه على هذا التصور، كثرة الشكوك المحيطة به،والتي تشير في الوقت ذاته إلى العوامل التي دفعت المسيحية إلى المادية بعد أن أخرجتها عن التنزيه الواجب لله.

فالدور الذي قام به بولس في هذه الديانة، وخطورة هذا الدور إلى درجة نسبة المسيحية إليه، فيقال: إنها مسيحية بولس أكثر مما هي مسيحية المسيح، هو دور تحيط به علامات استفهام كثيرة.

فمن الحقائق المجمع عليها:

١ ـ فيما يتعلق ببولس:

ـ أن بولس في نظر المؤرخين الثقاة يعد بحق واضع المسيحية المعروفة.

ـ أنه كان باعترافه يهوديا متعصبا على حد قوله «أنا يهودي فريسي ابن فريسي على رجاء قيامة الأموات» (٧٤).

ـ أنه كان شديد الاضطهاد للمسيحيين شديد التنكيل بهم والوشاية ضدهم، وقد جاء في سفر أعمال الرسل أنه «كان يسطو على الكنيسة، ويدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن (٧٥).

كما جاء فيه أيضا: أنه لم يزل ينفث تهديدا وقتلا على تلاميذ الرب، فتقدم رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق، إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا في الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم (٧٦)

أما كيف حدث هذا التحول الكبير لدى بولس فيقول «إنجيل لوقا»:

«وعندما كان بولس قريبا من دمشق، فبغتة أبرق حوله نور السماء فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له: شاول. شاول. لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟

فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده. فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ـ ماذا تريد أن أفعل فدله يسوع على تلميذ في دمشق، فاقتاده الرجال الذين كانوا معه بصران فقد بصره على أثر الحادث وظل ثلاثة أيام لا يبصر، ولا يأكل ولا يشرب حتى دخل دمشق ووضع ذلك التلميذ يده على عين بولس فأبصر، وعلمه أن يكرز للمسيح ابن الله وكرز بالمسيحية».

---

(٧٤) سفر أعمال الرسل ٢٣ : ٦.

(٧٥) إصحاح ٧ : ٦ وإصحاح ٨: ٣.

(٧٦) إصحاح ٩ : ١ ـ ٢.

يقول لوقا: «وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله»(٧٧).

- أن فكرة المسيح ابن الله لم تكن معروفة في المسيحية قبل بولس وحتى سنة ٣٨ م والحواريون كانوا إلى هذه السنة يفهمون من هذه الكلمة المجاز الذي لا يعدو أن يكون عيسى محبوبا لله كما يحب الأب ابنه وكما يحب الله سائر المخلصين. لكن لم تفهم على أنها بنوة حقيقية.

- أن من المجمع عليه أن بولس لم يلق عيسى قط، ولا سمع منه، ولم يذكر لنا المؤرخون من تلقى عليهم بولس تعاليم الوحي. وهو الذي يقول «وأعرفكم أيها الإخوة، والإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان «لأني لم أقبله من عند إنسان ولا علمته. بل بإعلان يسوع المسيح». (٧٨)

ومن ثم فإن سنده ليس متصلا بعيسى اتصالا يطمئن الباحث إلى وثاقة الانجيل والتعاليم التي بشر بها ونشرها.

- أن العقيدة التي نشرها بولس تبدو عليها آثار الصنعة الفلسفية والتعقيد الذي تخلو منه الأديان عموما. لأن الطابع العام للأديان هو البساطة في العقيدة والوضوح في تفهيم الناس والجمهور الأعظم منهم. لأن الأديان لم تأت بما خفي على العقلاء إدراكه وإلا لم تتحقق فائدتها المقصودة منها.

وإذا كان رجال الدين المسيحيين قد أجمعوا على أن فكرة الله الواحد في ثلاثة أو الثلاثة في الواحد، لا مجال للعقل في فهمها وأنها ستعرف بجلاء بعد نهاية هذا العالم، فما الفائدة التي تتحقق من إرسال رسول بها ليهدي الناس؟

والذي يطمئن اليه الباحثون أن بولس استفاد من اليهودية ديانته السابقة كما استفاد بشكل خاص من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي كانت تقوم في أساسها على أن الواحد صدر عنه عقل وعن العقل صدر الروح العام للبشرية، فعن هذا القانون يصدر العالم.

يقول «ويلز»: «وقد أوتي بولس قوة عقلية عظيمة، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية فتراه على علم عظيم باليهودية والميثراسية، وديانة ذلك الزمان التي تعتنقها الاسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيرا من فكراتهم ومصطلح تعبيرهم ولم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصيلة وتنميتها وهي فكرة «ملكوت السموات» ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب، بل أنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيرا عن خطيئة البشر فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية» (٧٩)

---

(٧٧) سفر أعمال الرسل ٩: ٣: ٢٠.

(٧٨) رسالة بولس إلى أهل غلاطة ١: ١١ - ١٢.

(٧٩) ويلز. موجز تاريخ العالم. ص ١٧٨. عن د. أحمد شلبي المسيحية ٩٣.

ويقول: «ليون جوتييه»: «أن المسيحية تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية اليونانية، فاللاهوت المسيحي من نفس المعين الذي صبت فيه الأفلاطونية، ولذا نجد بينهما مشابهات كثيرة» (٨٠)

- ثم أن هذه الفكرة لم يجمع عليها النصارى في أيام بولس، بل إختلفوا حولها إختلافا شديدا وظل الخلاف حولها محتدما بين فرق النصارى وكنائسهم أمدا طويلا مما دعا الإمبراطور قسطنطين إلى محاولة إنهاء هذا الخلاف وتوحيد طوائف شعبه على قول واحد في المسيح فدعا إلى مجمع نيقيه الشهير.

كل هذه الشكوك دفعت بعض الباحثين إلى القول بأن بولس إنما اعتنق المسيحية لكي يحدث فيها هذا الانشقاق ويخربها من داخلها إخلاصا ليهوديته حتى رجاء قيامة الأموات، كما قال هو من قبل.

ونحن وإن كنا لا نستبعد هذا الاحتمال تماما. إذ حدث ذلك في أغلب الأديان، وحدث ذلك نفسه في الإسلام إذ حاول بعض ذوي الأغراض الشخصية والسياسية والدينية أن ينشئوا حركات دخيلة في الإسلام ونجح بعضهم أحيانا وفشل البعض الآخر.

فليس مستغربا إذن أن يكون بولس قد رمى إلى توجيه المسيحية وجهتها التي أخرجتها عن حقيقتها التي جاء بها المسيح.

ومع ذلك فإننا نعتقد أن بولس لم يهدف إلى هذا، وإنما وجه المسيحية هذا التوجيه - كما يقول الشيخ أبو زهرة - تحت تأثير ثقافته ومعارفه وما بقى له من دينه السابق، اليهودية.

٢ - فيما يتعلق بقسطنطين :-

- وإذا كانت الشكوك تحيط بهذا الشكل بدور القديس بولس فإن أكثر من هذه الشكوك تحيط بدور الملك قسطنطين في مجمع نيقية الذي وضع المسيحية على طريقها في التثليث والوهية المسيح.

وهناك عدة حقائق مؤكدة في هذا الصدد:-

أن الملك قسطنطين لم يكن على المسيحية إبان عقد المؤتمر، وقد ثبت كما رأينا أنه ظل على وثنيته إلى اللحظات الأخيرة كما قال المؤرخ أبو سيبوس أنه هو الذي عمد قسطنطين حين كان أسير الفراش.

- أن ملوك الرومان كان طابعهم العام تصفية المسيحية. وقد كان لكل منهم منهج خاص في هذه التصفية.

---

(٨٠) المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ص ٩٣. عن د. أحمد شلبي المصدر السابق ص ١١٦.

فلعل الملك قسطنطين أدرك أن تصفية المسيحية بالاضطهاد والتعذيب وإحراق الكتب لا تجدي شيئا، فلجأ إلى أسلوب أكثر دهاء وأدوم أثرا في إدخال عناصر جديدة في المسيحية من شأنها أن تبعدها عن جوهرها وتقربها من مذاهب الرومان.

- أن سلوك الملك قسطنطين في المجمع ما زال غير مفهوم حتى اليوم.

فعدد المؤتمرين في مجمع نيقية كان ثمانية وأربعين وألفا وبعد إتاحة الفرصة للحوار المفتوح والمباشر تمخض عدد الذين يقتنعون بمقالة «أريوس» في التوحيد وإثبات أن عيسى بشر رسول الله عن أكثر من سبعمائة أسقف، وعدد الذين يقولون بما قاله بولس في أن المسيح ابن الله كان ثمانية عشر وثلاثمائة في أحسن الظروف، إذا أغضينا عن استمالة السلطان وتخويفه لبعض الأساقفة والبطاركة.

فلماذا انحاز قسطنطين إلى رأي بولس مع أن الأغلبية كانت مع رأي «أريوس» ولماذا عقد مؤتمره مع القائلين برأي بولس وحدهم متجاهلا تماما رأي الآخرين؟

ولو أنه كان منصفا لانحاز إلى الأغلبية وأعلن رأي «أريوس» وتبناه بدلا من أن يتبنى رأي بولس.

وهنا، فإننا لا نستبعد أن يكون الملك قسطنطين قد أراد أن ينهي خلاف الطوائف في مملكته حول هذه المسألة ويصفي المسيحية بطريقته الخاصة وإن كان الأقرب إلى ما يعرف، لأن رأي «أريوس» في توحيد الله واعتقاد أن عيسى نبي من البشر كان بعيدا عن عقيدته، فانحاز إلى ما يعرف لا إلى ما هو الحق في ذاته.

٣ ـ التناقض في الأناجيل:

- بالاضافة إلى الشكوك الكثيرة المحيطة بمسيحية «بولس» وموقف قسطنطين فإن التناقض بين الأناجيل صفة ملازمة لها، فهي متعارضة إلى درجة تسقط الثقة فيها جميعا.

- فقد أورد ابن حزم (٨١) سبعين فصلا في أناجيلهم في كل فصل منها مناقضة لا حيلة فيها، وفي بعض هذه الفصول ثلاث مناقضات.

- كما أورد العلامة «رحمة الله الهندي» أكثر من مائة اختلاف بين الأناجيل.

ونورد هنا نموذجين اثنين لهذا التناقض، ونحيل القارىء، بعدهما على كتاب «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم وكتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي ففيهما الكثير من هذه المتناقضات العجيبة.

- النموذج الأول: اختلاف الأناجيل وكذبها في نسب المسيح عليه السلام، فإنجيل متى ينسب المسيح فيقول إنه ابن النجار ثم ينسب يوسف إلى الملوك من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، وإنجيل لوقا ينسب يوسف النجار إلى آباء غير الذي ذكر «متى» حتى يخرجه إلى ناتان بن داود اخي سليمان بن داود.

---

(٨١) الفصل في الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٦ ـ ٧٣ طبعة صبيح.

يقول ابن حزم، ولا بد ضرورة من أن يكون أحد النسبين كذبا فيكذب متى أو لوقا أو لا بد أن يكون كلا النسبين كذبا (٨٢)

- والنموذج الثاني يكشف التناقض في إنجيل واحد هو إنجيل يوحنا ففي أوله «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان.

يقول ابن حزم أيضا: «كيف تكون الكلمة هي الله وتكون عند الله، فإن الله إذن عند نفسه، ثم قوله إن الذي خلق بالكلمة هو حياة فيها فعلى هذا حياة الله مخلوقة، فروح القدس على نص كلام هذا الرجل مخلوق، لأن روح القدس عند جميعهم هو حياة الله، وهذا خلاف قول جميع النصارى. لأن الحياة التي في الكلمة مخلوقة بنص كلام يوحنا والله بنص كلام يوحنا هو الكلمة، وهذا هدم لملة النصارى من قرب» ((٨٣).

ومن المعروف المسلم به: إن الأناجيل لم تنسب إلى عيسى وإنما دونها كتابها كتاريخ للمسيح وتسجيل لأقواله وأفعاله وهي تفتقد وثوق نسبتها إلى أصحابها أحيانا كما نرى في إنجيل مرقس إذ يرى أن الذي كتبه هو بطرس رئيس الحواريين وأستاذ مرقص. فكيف يروي أستاذ عن تلميذه ويروي أن الذي كتب الإنجيل هو مرقص وما كتبه إلا بعد موت بطرس وبولس (٨٤)

ومع ذلك كله خلت أناجيل متى ومرقس ولوقا من التصريح بألوهية المسيح، ولذلك يعني المسيحيون بإنجيل يوحنا الذي كتب خصيصا للبرهنة على ألوهية المسيح لأن القوم لما لم يجدوا دليلا عقليا أو نقليا على هذه الألوهية رغبوا إلى يوحنا أن يكتب لهم هذا الإنجيل خصيصا لهذا الغرض.

ويشكك كثير من المحققين في نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا، بل يختلفون في أي يوحنا هو: هل هو يوحنا الحواري الذي كان يحبه المسيح ويقال إنه استودعه والدته وهو فوق الصليب؟ أو هو يوحنا آخر؟ أو هو طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية؟

وهذه الشكوك قديمة منذ القرن الثاني الميلادي مع أن الإنجيل كتب كما رجح الدكتور «بوست» سنة ٩٥ أو سنة ٩٨ م.

تقول دائرة المعارف البريطانية: أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكتاب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ووضعت اسمه على الكتاب نصا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا.

---

(٨٢) الفصل في الملل والنحل ج ٢. ص ٢٩.
(٨٣) المصدر السابق ج ٢. ص ٦٧.
(٨٤) انظر: أبو زهرة. محاضرات في النصرانية ٤٧.

ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين ما نسبت إليه.

وانا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهودهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحوارى يوحنا الصياد الجليل، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى ليخبطهم على غير هدى (٨٥)

وهكذا يثبت كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة أن الأساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الانجيل الذي يدل عليها ويصرح بها ولما أرادوا أن يحتجوا على خصومهم ويدفعوا هرطقتهم في زعمهم لم يجدوا مناصا من أن يلتمسوا دليلا ناطقا يثبت ذلك فاتجهوا إلى يوحنا. (٨٦)

٤ ـ فيما يتعلق بالأناجيل :

– ومع هذه الشكوك الكثيرة التي تحيط بالمسيحية من كل جانب ـ كما ـ رأينا سواء في الدور الذي قام به بولس، أو دور الملك قسطنطين أو في الأناجيل نفسها وهي مصادر هذه الديانة، فإننا سنستمر في مناقشة تصور ألوهية المسيح ونقف عند حادثة الصلب.

إن الصورة التي ترويها الأناجيل عن هذه الحادثة، صورة مروعة تقشعر لها جلود وقلوب الذين يحبون المسيح.

يروي إنجيل متى: «فقال الوالي للشعب: ماذا أفعل بيسوع الذي يدعى المسيح»؟
قال له الجميع: ليصلب!
فقال الوالي: وأي شر عمل؟
فكانوا يزدادون صراخا قائلين: ليصلب!

فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئا بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا: إني بريء من دم هذا البار. أبصروا أنتم.

فأجاب جميع الشعب: وقالوا: دمه علينا وعلى أولادنا.

حينئذ جلد الوالي يسوع وأسلمه للصلب، فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة فعروه وألبسوه وداء رداء قرمزيا وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه، وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام ياملك اليهود، وبصقوا في وجهه، وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه، وبعد أن استهزأوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب، وأعطوه خلا ممزوجا بمرارة ليشرب، ولما ذاق لم يرد أن يشرب.

---

(٨٥) المصدر السابق ٥٤.
(٨٦) نفس المصدر ٦٠.

ويمضي إنجيل متى فيقول: إنهم صلبوا مع المسيح لصين، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار، وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين، يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام. خلص نفسك، إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب (٨٧).

أي إله هذا الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه هذا الويل والاستهزاء ؟
ثم كيف يترك الله ابنه ـ عندهم ـ لمثل هذه الإهانة؟

إن القول بالصلب على هذا النحو يصف الإله ـ سبحانه وتعالى عما يقالون ـ بالعجز أو عدم الحكمة والجور وعدم العدل.

فهو على هذا يوصف بالعجز إن كان قد ترك ولده طعمة لهؤلاء الذئاب ليصنعوا به مثل ما صنعوا، وعيسى أيضا على هذا الوصف موصوم بالعجز وعدم الحيلة أمام ما صنع به هؤلاء دون أن يقدر على فكاك نفسه.

والله ـ على هذا التصور ـ لا يتصف بالحكمة ـ سبحانه وتعالى ـ لأنه لا يبدو أي وجه للحكمة في مصرع عيسى عليه السلام على هذا الشكل.

فإن قيل: إن الله صنع هذا ليفدى الجنس البشري، فإن هذا خروج عن العدل لأنه عقاب لبريء لتبرئة مذنب ولغير فائدة.

فإذا كان آدم قد أخطأ فما ذنب أبنائه من بعده؟ وما ذنب عيسى عليه السلام ليتعرض لهذه الإهانات لكي يفدى خطيئة لم يفعلها من حمل مسؤ وليتها.

ثم إن المقطوع به أن آدم قد تاب وقبلت توبته فما الداعي لتعذيب غيره بذنب قبلت التوبة منه؟ هل يرجع الله (سبحانه) عن قبول التوبة؟

أليس هذا ظلما وعبثا ينافي الألوهية؟

وهكذا يتسبب التصور المسيحي الذي وضعه بولس في إلحاق الإهانة بعيسى وإلحاق الظلم والعبث بالله، وهذا محال على الله سبحانه وتعالى.

٥ ـ مامعنى اتحاد اللاهوت والناسوت ؟

ـ على إننا إذا مضينا في تأمل هذا التصور المادي للمسيحية وناقشناه في ضوء العقل والموضوعية، لكان لنا أن نسأل: ما معنى إتحاد اللاهوت بالناسوت.

ان كلا من اللاهوت والناسوت له خصائص تختلف عن الآخر، فالناسوت مادي واللاهوت لا مادي، ولا يخلو اتحادهما من أن يظلا بعد الاتحاد اثنين دون زوال الخصائص الأساسية وبهذا لا اتحاد.

وإن استحالا إلى شيء ثالث كما نجد الماء واللبن والنار والحديد ونحو ذلك، وهذا

---

(٨٧) إنجيل متى ٢٧ : ٢٢ ـ ٤١.

الذي تقول به النصارى، فإنه لا مفر من تحول خصائص كل من المتحدين أو بعضهما إلى خصائص الآخر أو بعضه. وعلى ذلك يلزم أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته والمخلوق قد استحال وتبدلت حقيقته.

يقول ابن تيمية: «وهذا ممتنع على الله تعالى منزه عنه. لأن الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجودا، والرب تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له يمتنع العدم على شيء من ذلك ولأن صفات الرب اللازمة له صفات كمال، فعدم شيء منها نقص يتعالى الله عنه.

ولأن اتحاد المخلوق بالخالق، يقتضي أن العبد متصف بالصفات القديمة اللازمة لذات الرب، وذلك ممتنع على العبد المحدث المخلوق فإن العبد يلزمه الحدوث والافتقار والذل والرب تعالى يلازمه القدم والغني والعزة وهو ـ سبحانه ـ قديم غني عزيز بنفسه يستحيل عليه نقيض ذلك.

فاتحاد أحدهما بالآخر يقتضي أن يكون الرب متصفا بنقيض صفاته: من الحدوث والفقر والذل، ويكون العبد متصفا بنقيض صفاته من القدم والغنى الذاتي والعز الذاتي، وكل ذلك ممتنع» (٨٨)

فإن قالوا إن الله جوهر واحد والأقانيم لا ذوات وإن أقنوم الابن هو الكلمة أي هذا الوصف، فإننا نقول: ما صلة الوصف الذي هو الكلمة بشخص المسيح وجسده؟ هل الوصف حال فيه وحده دون بقية البشر؟ وعلى ذلك لا يكون إلها، لأنهم حينئذ إنما يعبدون الوصف لا الشخص فإذا انتهى الشخص بقي الوصف لله فلا تكون الألوهية للمسيح وإنما تكون لله باعتباره متصفا بالكلمة إلا إذا قلنا إن الشخص لم ينته ولكنهم يقولون إنه صلب بناسوته بجسده ولم يبق شيء إذن من الجسد أي أنه انتهى، فلزم أن تنتهي عبادته.

لكنهم لا يقولون بذلك وإنما يقولون هو باق وهو على يمين أبيه.

ويلزم على هذا أن يكون جوهرا. وهنا يمتنع أن يكون هناك إله واحد بل ثلاثة، ولكنهم حتى هذه لا يقولونها، وإنما يقولون هناك إله واحد.

وهكذا لا بد أن يقولوا بشيء واحد إما أن يكون الإله واحدا أو ثلاثة، لأن القول بالثلاثة يوجب أن تكون جواهر أو صفات، فإن كانت جواهر كانت عددا وإن كانت صفات لذات واحدة هي الله امتنع أن يكون المسيح إلها.

يقول ابن تيمية أيضا: «فالنصارى حيارى متناقضون»:ـ

ـ إن جعلوا الأقنوم صفة امتنع أن يكون المسيح إلها.

وهم يريدون أن يجعلوا المسيح إلها ويجعلوه ابن الله، ويجعلوا الآب وابنه وروح القدس إلها واحدا.

---

(٨٨) ابن تيمية مجموع الفتاوي. المجلد الثاني ص ٣٩.

ولهذا وصفهم الله في القرآن بالشرك تارة وجعلهم قسما غير المشركين تارة لأنهم يقولون الأمرين وإن كانوا متناقضين» (٨٩)

وبهذا لا يثبت للقوم حجة عقلية ولا نقلية.

وهكذا لاتثبت لهذا التصور حجة عقلية لأن محاولة فهم فكرة التثليث أمر غير ممكن وتصورها بعيد ـ كما رأينا ـ عن العقل، ولذلك فهم يرفعونها فوق التفكير ويأخذونها كما رأينا أيضا ـ دون مناقشة.

كذلك لم تثبت لهم حجة نقلية، لأن الأناجيل كلها كتبت بعد إعداد العقيدة، والأناجيل يتطرق إليها الكثير من احتمالات الشك وورود احتمال واحد منها يسقط الاستدلال.

---

(٨٩) المصدر السابق ص ١٨٥.

ملاحظات عامة

على التأثيرات المادية في التصورات الدينية اليهودية والمسيحية

نستطيع أن نستخلص الحقائق الآتية من متابعة تأثير التيارات المادية في تصورات المتدينين: اليهودية والنصرانية:

(١): إن مصير التصورات الدينينة أمام النزعات المادية كان مختلفا من دين إلى دين.

أـ فبالنسبة لليهودية. فقد كان من الصعب أن تحتفظ بنقائها التجريدي الذي ينزه الاله عن المادية من التشبيه والتجسيم، إذ لم يكن لدى اليهود القدرة على التحرر من النزعة المادية التي تأصلت فيهم.

- بحكم طبيعتهم الانعزالية والمادية.

ـ وبحكم التأثر المسبق بمعبودات المصريين القدماء التي كانت تؤله مظاهر الطبيعة كالشمس، أو الحيوانات كعجل ابيس.

ولذلك تخللت المادية الديانة اليهودية من أول الأمر فأفسدت طبيعتها التوحيدية.

ب ـ أما بالنسبة للنصرانية فقد كانت لها مقاومة ما إزاء التيار المادي الذي تشير الأبحاث إلى أن اليهود هم الذين أدخلوه إليها عن طريق تحول القديس بولس من اليهودية إلى المسيحية بكل ما يحمل من عقيدته السابقة وثقافته الواسعة التي كانت متجمعة من ديانات ثنوية ومادية.

فقد انفض تلاميذ القديس بولس وأنصاره عنه ولم يبق حوله إلا تلميذه الطبيب لوقا ورفضوا مقالاته في التثليث، وظل الخلاف بين الطوائف المسيحية محتدما شديد الأوار حول طبيعة المسيح، وكان ما القاه القديس بولس إلى المسيحية قد جعل الفكر المسيحي يدور في دوامة شديدة يحاول بها المخلصون أن يخلصوا المسيحية من النزعة المادية.

ولم تستقر النزعة المادية في المسيحية إلا بفعل القرارات الصارمة التي أصدرها مجمع نيقية رغم رفض الأغلبية في هذا المجمع ورغم انعقاد مجمع «صور» ومجامع أخرى تلته لتحاول أن ترد إلى المسيحية نقاءها الموحد المجرد عن المادة، دون جدوى.

(٢) أن التيارات المادية التي حاولت أن تتسلل إلى العقائد والأديان لا تملك أمام وضوح التوحيد المجرد وقوته غير بعض التصورات البشرية التي ليس لها مبرر عقلي واضح ينقلها من التصور إلى الحقيقة.

أما الأديان الموحدة فقد ثبت أنها تملك الحقيقة المبرهنة على تنزه الله وتجرده من المادة، ومن يخرج على هذه الأديان لا يملك برهانا على ما يذهب إليه.

فقد ثبت أن اليهود لا يملكون دليلا عقليا مقبولا على تجسيم الله وتشبيهه، وليس عندهم إلا تصورات مادية فجة للإله، يحاولون أن يسندوها بنصوص من التوراة، مع أن هذه النصوص غير موثقة ولا يطمأن إلى مصدرها.

- كما ثبت أن التصور المسيحي للتثليث وألوهية المسيح غير واضح أصلا، وأن النصوص التي يعتمدون عليها في تقرير هذا التصور إنما وضعت بعد وضع العقيدة ومن ثم لا تصلح أدلة عليها.

على أن أغلب الأناجيل لا تتحدث عن ألوهية المسيح، فيما عدا إنجيل يوحنا الذي كتب خصيصا ليعني بهذه المسألة.

وعلى مستوى البرهنة العقلية فإن التصور المسيحي لا يملك أي برهان عقلي واضح يمكن أن يقرب هذا التصور إلى الأذهان فضلا عن أن يؤ يده ويدعمه.

(٣): أن التيارات المادية إذا استقرت في الأديان وتخللت عقائدها فإنها تفسدها وتحولها عن دورها الإيجابي في الحياة الانسانية.

فالديانة اليهودية بعد أن خالطتها المادية أخرجتها عن دورها في الإصلاح الفردي والاجتماعي.

وإذا كان لأحد أن يقول: إن الديانة اليهودية استطاعت أن تقيم دولة في العصر الحديث، فإننا يجب أن نتنبه إلى نقطتين أساسيتين:-

- أن هذه الدولة لم تقم إلا بعد زمن طويل منذ ما قبل الميلاد حتى اليوم.
- أن الصهيونية التي أقامت هذه الدولة عبارة عن عقيدة سياسية أكثر منها عقيدة دينية.

فالصهيونية تمثل (أيدلوجية) أو عقيدة اجتماعية، ممزوجة بالدين فالدور الأساسي للحركة السياسة التي تنتمي إلى العصبية للتاريخ والأرض أكثر من انتمائها إلى عقيدة الألوهية الدينية.

أما بالنسبة للمسيحية: فقد تسببت المادية في غموض هذه العقيدة غموضا شديدا جعلها مستغلقة على الأفهام، ومن ثم فقدت دورها في إصلاح الحياة البشرية.

وقد أدى هذا إلى:-

- قيام حركات الإصلاح الديني المتتابعة في المسيحية.
- نشوء حركات الإلحاد ضد المسيحية إذ كانت دينا غير واضح وغير مفهوم.

ـ فصل هذا الدين عن الدولة وتسيير الحياة على غير أساس ديني.
ـ نشوء تيارات فلسفية عديدة تحاول أن تعوض الإنسان عما فقده في الدين.

ذلك أن الغموض الشديد الذي أحاط بطبيعة المسيح دفع الكثيرين من رجال الدين المسيحي المخلصين أن يلتمسوا لها التبريرات والحجج التي يمكن أن تؤازر فكرة التثليث وجعل المسيح الذي هو مادة ـ إلها.

ولما كان هناك بعض وجوه الشبه بين المسيحية بهذا الشكل والفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي تقوم على فكرة الواحد، فقد عمد رجال الدين إلى خلط هذه الفلسفة بالمسيحية والتماس مبررات هذه لتلك.

ولكن المشكلة مع ذلك لم تحل، بل اشتدت صعوبتها وازداد غموضها إلى درجة أفقدتها دورها الإيجابي في هداية الناس ومدهم بما ينتظرونه من الدين من عوامل السكينة والأمن النفسي وراحة العقل.

ولم يجد الناس في الأناجيل ما يريحهم نحو هذه الفكرة فازدادت حركات الإلحاد وانتشرت.

كل ذلك دفع آباء الكنيسة إلى حظر القراءة في الكتب المقدسة ومحاولة الاستقصاء في العقيدة وأخذوا هم يعطون المعرفة التي يختارونها للناس كقوالب لا يمكن الخروج عنها أو تجاوزها.

وبذلك كان عصر استبداد الكنيسة هو عصر محاربة العلم والفكر.

وكانت لذلك ردود فعل عديدة اختلفت باختلاف المفكرين.

- فمنهم من ألحد في الدين،

ومنهم من حاول إصلاحه ،

ومنهم من أبقى على الدين في مجال الأخلاق الشخصية ليدير دفة الحياة والدولة بالعلم والقوانين الوضعية ،

ومنهم من حاول إيجاد الصيغ الفلسفية التي تحل محل الدين .